ميترنخ العصر الحديث

٢

استأنف ترجمة الحديث الصحفى مع الدكتور هنرى كيسنجر أجراه اثنان من صحفى «الابزيرفر» اللندنية.. وقد وقفت به عند قول كيسنجر.. وعمومًا أعتقد أن سكرتير الدولة ينبغى أن يكون المستشار الأول للرئيس.. فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض.

وختام إجابته هو: «ومع أنى شاركت فى الاجتهاد لتحقيق قولى – فالأمر ضرورى فى بعض الأحيان – فإن وسيلتى لم تك أفضل فى هذا التحقيق».

ص : هل الكونجرس غدا أصعب، أو أسهل مراسًا فى تعامله مع وزير الخارجية؟.

ك : لقد تغير الكونجرس فى السنوات الثمان، مدة خدمتى. فحين نزحت إلى واشنطن كان به عدد من الشخصيات القيادية – فى مجلس النواب والشيوخ – تستطيع أن تتبين منهم الممكن، ومع من يمكن التفاوض.

أما اليوم فلا يوجد قائد رأى يملك الأصوات الكافية لتقدير موقفك بدقة. وعلى هذا نجد تحالف مجموعات لكل شأن من الشئون. وتتغير هذه التحالفات بتغير الموضوع. وهذا يستقطع وقتًا

غير محدود من سكرتير الدولة. وقد قضيت نصف وقتى مع الكونجرس، وأنا على ثقة بأن من خلفنى يصرف معه وقتاً معادلا لما صرفت.

الأمر الثانى فى أن الكونجرس قائم لإصدار القوانين لا ليباشر السياسة اليومية، والشئون الخارجية. وإصدار القوانين عملية تقتضى خطوات يتم فيها التفاهم على حلول الوسط وينتهى بالموافقة على تلك القوانين. أما الشئون الخارجية فهذه عملية متواصلة تتوقف على الإحساس الدقيق بها تحت السطح.. وتدخل الكونجرس فى قرارات تكتيكية صميمة يؤدى فى الأقل إلى أضعاف الترابط المنطقى، لأن لكل تدخل تحالفاً مختلفاً، وتنشأ عن ذلك تعقيدات كبيرة.

ص : هل كان لسنواتك الأولى فى ألمانيا حتى سن الخامسة عشرة تأثير تكوينى على تفكيرك؟.

ك : أظنك تتوقع أكيداً أنه كان لها بعض التأثير على تفكيرى، أى نعم.

ص : هل لك أن تفصح أكثر؟.

ك : أقول لك: كان أثرها بطرائق متعددة. وأظن أنه من غير الممكن الحياة فى دولة شمولية وخاصة لعضو فى جماعة مضطهدة (اليهود الألمان) – دون التحقق من أن المجتمعات معرضة لمصائب لا راد لها، لعدم وجود طريق واضح يؤدى إلى اتجاه إيجابى.

ثانيا: فى ظنى – على الرغم مما يبدو فى هذا من «مسح الجوخ» أن الحياة فى ألمانيا النازية تحمل الإنسان على تقدير أهمية الولايات المتحدة.

وهى الأهمية التى يبدو أن الأميركان القح لا يفهمونها،

وبخاصة أولئك المفكرين الذين درجوا على الإنحاء باللائمة على بلادهم.

عندما وصلت حديثًا إلى هذه البلاد طلب منى فى المدرسة الثانوية أن أكتب موضوع إنشاء عما أراه، والمعنى من مجيئى إلى أمريكا. فكتبت بأن الأمر ليس سهلا على مهاجر يتكلم لغة البلاد المضيفة بلكنة أجنبية. ولكنى عندما أفكر بأنى أستطيع مع هذا عبور الطريق رافع الرأس فإنها لتبدو لى تجربة مثيرة إلى حد كبير.

نعم اعترف بأن الأمر شخصي. ولكن كل من عرف الحرب فى أوربا، ورأس استقبال الشعوب المحررة للأميريكان بعد ختام الحرب، يجب أن يعتقد بأن هذه البلاد (أمريكا) لها دور هام جدًا فى إحياء الأمل بين الناس، ويتعين عليها ألا تداوم على تعذيب نفسها مما يؤدى إلى تحطيمها.

ص : متى بدأت التفكير المنظم فى السياسة الخارجية ؟.

ك : شوف ياسيدى (ترجمتى لكلمة «ول») لقد كنت دائمًا مهتمًا بالشئون الخارجية ولكنى لم أفكر قطّ بأن فى إمكانى القيام بدور ما فى تلك الشئون. ودام هذا إلى أن التحقت بالجيش، أى حتى سافرت إلى أوربا، مجندًا فى الجيش الأمريكى، وقررت أن هذه منطقة أحتاج إلى التفكير فيها أكثر من ذى قبل، وذلك ما جرنى إلى جامعة هارفارد والتخصص فى هذا الميدان.

ص : هل كان تفكيرك نافعًا مما يشبه القول «يجب علينا ألا نلج هذا الجحيم مرة أخرى، يجب أن أحاول القيام بدورى فى إيقاف العمل ؟

ك : إذا كان تعريفك للجحيم لا يقتصر على الحرب وحدها، بل ينطوى

على النظم الشمولية بقضها وقضيضها فإنى مجيبك أكيدًا بأى نعم! وبشدة.

ص : هل لديك مجموعة آراء متماسكة حول السياسة الخارجية، مثلما كان لدى بعض ساسة أوربا الكبار، فيما مضى؟.

ك : أس السياسة الخارجية أن تربط الأفكار بالممكنات. فلا أظنك تستطيع مباشرة السياسة الخارجية بطريقة دجماطية بحتة. وحتى الدجماطيين الذين كانت لديهم بعض أفكار، ولو بدائية فإنهم يجهدون فى تحقيقها. وقد ينتظرون الظروف التى تفرض عليهم هذا التحقيق. فالحقيقة أنه لا وجود لشىء اسمه الدجماطية البحث. كانت لدى بطبيعة الحال أفكار. فكرت مليًا فى الصلة بين البنية القومية، والشرعية الدولية والسلطة، أعنى الصلة بين الأفكار المثالية التالية والواقع القائم. وحررت ورقات فلسفية فى هذا الموضوع. إنما السياسى فى الوقت نفسه لا يصح أن يكفى بالفكرة، بل يجب أن يلم بمعالجة الوسائل. وما حاولت إثباته هو الوصل بين الفكرة والوسائل. لأن أس مباشرة السياسة هو أنه لا سبيل إلى إدخال كل العوامل الممكنة فى حسابك.

ص : أى كتاب، ومن المفكر الذى كان أعمق أثرًا فى نفسك، وأنت مراهق؟

ك : شوف: كما قلت لك، كنت معنيًا أكثر بفلسفة السياسة. تأثرت كثيرًا باسبينوزا وقانت، كما تأثرت بناحية واحدة من نواحى شبنجلر - لا فى توقعه تدهور الحضارة، فهذا أمر ثانوى - ولكن فى فكرة وحدة المجتمع حيث تلتقى الفلسفة، والفن، والرياضيات،

والسياسة فى إطار مفاهيم واحدة. راقت لى هذه الفكرة جدًّا، ولا أدرى ماذا كانت نتيجتها العملية فى الوصول إلى المباشرة السياسية، إلا أن تكون قد أثارت اهتمامى بمجتمعات مختلفة.

ص : لقد قورنت فى أغلب الأحيان بميترنخ وبكاسپلرى. هل يمكن أن تقارن بشخص ما؟ ولماذا يذكر الناس دائمًا فيما يختص بك هذين السياسيين من أهل القرن التاسع عشر؟.

ك : شوف، لأننى وضعت كتاباً عن ميترنخ وكاسپلرى. ومن سخريات القدر أن جاء هذا الكتاب عفوًا. فالأصل أنى أردت وضع مقدمة لكتاب عن بسمارك، أوضح فيها الفرق بين سياسته الخارجية وسياسة من سبقوه. ولكن التقديم طال ونما حتى انتهى إلى كتاب بعينه. أما الكتاب عن بسمارك فقد توقف فى الطريق ولم أتمه قط. كتبت منه ثمانية فصول وتخليت عنها عندما ركزتها فى مقال واحد. إنك لا تستعمل التاريخ، كما تستخدم كتابًا فى الطهى، فتقارن نفسك بفرد ما. لقد أثر علىّ ميترنخ بمهارته الدبلوماسية، وبما حقق كاسپلرى، وميترنخ، والساسة الآخرون. لقد أقاموا تسوية دولية عاشت قرنًا من الزمان.

إلا أن الدروس التى يمكن استخلاصها مما أحدثوه لا مكان ذا أهمية لها فى عصرنا.

ص : عندما كنت تفكر وتؤلف فى السياسة الخارجية، وأنت أستاذ شاب، هل طرأت عليك فكرة قيامك يومًا بمباشرة سياسة خارجية، أى أن تصبح صاحب سياسة؟.

ك : عندما كنت أستاذًا شابًا فى هارفارد، كان من المستحيل أن أتصور عملية تنتهى بى إلى أن أصبح الشخص الأول فى وضع سياسة

خارجية. فكرت فى أن أستشار عرضًا فى شئون محدودة، ولكن هذا لا يعنى أن أكون واضع سياسة. كلا لم تطرأ على مطلقًا فكرة طلوعى كشخصية أولى فى مباشرة سياسة خارجية.

ص : هل وجدت فى الإعلام الهائل حولك، وأنت تسافر من هنا وهناك، أو حتى وأنت بعقر دارك أمرًا يعينك فى مباشرة السياسة الخارجية، أو يعرقلك ؟.

ك : فى ذروة شهرتى الإعلامية، وجدت أنها مفيدة جدًّا. لأنها تمكنت من إعطاء صورة للسياسة الأميريكية فى وقت متاعب داخلية قاسية. ولكنها لم تعد خيرًا خالصًا فيما بعد، لأنها عرضتنى هدفًا مكشوفًا للهجوم علىّ.

ص : قلت يومًا: السلطة أعظم مقوٍّ للأعصاب (الأصل «أفروديزياك»)، ولكنك لم تشرح لنا ماذا عنيت بذلك ؟.

ك : الحق أقول لك، دى كانت نكتة، ولكنك أكيدًا.. أعنى أن من الواقع عندما تتبوأ مركزًا ساميًا، فإن حياتك الاجتماعية تنمو وتتكاثر بما لا يتكافأ مع ميزاتك الحقيقية.

ص : هل راق لك دور راقص «السوينج» ؟.

ك : لم تصدر منى أى شكوى من هذا الدور. ولم أبذل جهدًا جادًّا فى الإقلاع عنه (كل هذا إشارة إلى الابتذال فى حياة المتحدث الاجتماعية) ؟.

ص : ظهر موضوع انتقاد يمس المبالغ الطائلة التى عرضت عليك، وعلى بعض رجال الحكم بعد مغادرتهم له. ما رأيك فى هذا النقد ؟.

ك : «أول رايت» [طيّب] ولكنى أفكر بأن المرء ملزم بالتفكير فى أنه

خرج مدينًا إلى آذانه من جراء القيام بخدمة عامة . وحتى الآن فإن قدرًا عامًا من دخلى يصرف فى سبيل التحفظ على أمنى ، ويجب ألا يؤثر هذا الصرف على أسلوب معيشتى .

ص : تعنى أثره فى تخفيض مستوى حياتك ؟

ك : أى نعم ، بمعنى ألا فائدة لى فى هذه التكاليف . ثم لاحظ أنه ليس شذوذًا إذا كتبت الشخصيات العامة مذكراتها عن حياتها فى الحكم . والواقع أن كل رؤساء الولايات المتحدة وأغلب سكرتيرى الدولة نشروا مذكراتهم .

ص : هل تخطط لهذه المذكرات أن تتألف من مجموعة أفكار أو أن تجىء سردًا لوقائع تاريخية ؟

ك : الأمل أن تجئ تاريخًا جذريًا ، أكثر منها تقديم صور قلمية موجزة (فنيتات) . فبطبيعة الحال ينبغى ألا يتكلم الكاتب عن أمور أو أعمال لم تبدأ فعلا ، ولكنى أود إيضاح العوامل التى أدت إلى القرارات – أقصد العوامل الدولية والقومية ، الضغوط الديوانية (البيروقراطية) والمؤثرات التى تجئ من الشخصيات ، ما كان المقصود بلوغه وما انتهى إليه فعلا ، مما يجعل الناس تقبل على قراءته فى فترة من فترات المستقبل ، لا رضاء عنه ولكن فيما يعنى أن ذلك كذلك .

ص : قيل بأننا فى حاجة إلى «كينز» سياسى (اللورد كينز المفكر الاقتصادى الذى أنقذ العالم من أزمته الطاحنة فى آخر العشرينات وأوائل الثلاثينات) ليحلل لنا ورطتنا المعاصرة . هل تكون أنت هذا الرجل ؟ .

obeikandl.com

ك : إنه لغرور غير مصدق أن يزعم إنسان هذا قبل أن يكتب سطرًا، وإنها لمن سخريات القدر أن يذكر الناس كينز فى اللحظة التى لم تعد المشاكل التى واجهها مسيطرة.

ص : سؤال قد تشاء أو لا تشاء الإجابة عنه، ولكنه يختص بشخصيتك ذاتها: هل كنت رجلا عصبيًّا فى معاملتك لمعاونيك، أعنى رجلا جياش العاطفة، إنسانًا تصعب مجاراته وإرضاؤه؟

ك : لست أفضل القضاة حكمًا على شخصيتى. والواقع أن جميع معاونى تقريبًا ظلوا معى السنوات الثمان مدة عملى كسكرتير دولة (وزير خارجية) وأغلبهم غدوا أصدقاء حميمين. وفى ظنى أن الصورة التى ظهرت للناس كانت من صنع أناس خدموا معى نحو عام فى بدء عملى بواشنطن، وجعلوا من هذا التصوير مصدر كسب لهم. ولم يتنبه الناس المعاونون الذين لبثوا معى ثمانى سنوات، وهم الذين ألفوا مجموعة من أحسن الجماعات تضامنًا، وفكرًا، مما ندر أن تمتع به موظف كبير طوال خدماته. أعتقد أن دور رئيس مؤسسة، هو الإيحاء لمعاونيه بأن يؤدوا أعمالا لم يعرفوا أنها فى مكنتهم. وأنك لقادر أن تستأجر الخبرة التقنية، أما ما لا سبيل إلى استئجاره فهو القدرة على تجاوز الإطار المعهود. وهذه عملية يمكن أن تكون مؤلمة.
إلا أنه لا يحكم الناس على شاغل وظيفة عامة من ناحية إجراءتها الروتينية ولكن بإحساسهم فى النهاية بالنتائج، لقد تأثرت جدًّا من صداقة معاونىّ، وتكريسهم لعملهم، ولست أدعى أننى كنت سهل التعامل. لأن وظيفتى كانت سهل التعامل. فقد كانت للدفع والإيحاء. لا للمكافأة والإرضاء، وأغلب زملائى المباشرين غدوا أصدقاء العمر.

ص : جاءك رهط من زملائك فى جامعة هارفارد يحضونك على الاستقالة، وكان هذا فى مطالع خدمتك من حوالى ١٩٧٠ فيما أظن.

ك : فى مايو ١٩٧٠ فى أثناء أزمة كامبوديا.

ص : هل كنت على وشك الاستقالة فى أى وقت خلال ثمانى سنوات عملك؟.

ك : نعم. فى مرتين. كنت فعلا معتزمًا على الاستقالة.

ص : لماذا لم تستقل إذن؟.

ك : إذا استقلت فجزاؤك المنشتات لثلاثة أيام. ولكنك تفقد الفرصة فى تشكيل الوقائع على المدى الطويل. وعلى الشخصيات العامة أن تقرر متى تقدم استقالتها، وعلى أى أساس، مع التأكد من ألا يكون هدف الاستقالة مجرد الاعتداد بالنفس، وإرضاء الذات. أو محاولة بارعة لتأمين مستقبل الشخص.

obeikandl.com

ذكرى من دنيا الله الواسعة

تسعة أشهر على ظهر السفينة «مباحث»، تجوب بحار الشرق (الأحمر والعربى والهندى) تشارك فى أعمال البعثة البريطانية التى تحمل اسم «السير جون مورى»، تخليدًا لذكرى هذا الرائد الكبير من رواد علوم البحر. هذا والسفينة تحمل فى مكانه المعهود عليها الرائع بخضرته، وهلاله ونجومه وترفع شريطًا أحمر على الصارى إشارة إلى أنها تضيف بعثة بريطانية، والموانئ والمرافئ التى دخلناها كانت كلها فى ذلك الزمان البعيد (١٩٣٣ - ١٩٣٤) تدخل فى نطاق الأغنية المشهورة «احكمى يا بريطانيا من طرق الاستعمار اللولبى».

أسلوب العمارة الحديثة فيها لا يتغير فى مرفأ أو ميناء عن آخر: خليط من العمارة الفكتورية مع لمحة من الفن المحلى، والحياة الاجتماعية منها بريطانيا أو متأثرة بها.

أحاديثنا أغلبها بلغة الضيوف، وإن تعلموا غير قليل من كلامنا، والطعام إنجليزى قح، يطهوه طباخ مصلحة خفرا لسواحل (صاحبة السفينة)، إلا فى شهر رمضان إذ حرص الضباط والمهندسون المصريون ورجالهم على تموين السفينة بالخضر والفواكه والمكسرات الأفريقية، من سوق ممباسة الأهلى وذلك قبل حلول الشهر الفضيل.

طبيعى أن أحس بالملل فطبيعة الشباب كلفة بالتغيير، فلا تعجب أن

يكون طعامنا فى تلك الموانئ والمرافئ : عربيًا محليًا ، أو هنديًا ، أو زنجباريًا ، أو سرنديبيًا .

إلى أن عبرنا خط الاستواء إلى جزيرة زنجبار ، ومنها خضنا أطول عبور عرضى ، وهو الثانى للمحيط الهندى إلى كولومبو ، عاصمة جزيرة سيلان (سرى لنكا حالا) ، وكان على السفينة البخارية أن تتوقف يومًا أو يومين عند أرخبيل سيشيل ، لتموينها بحمل إضافى من الفحم . وصلنا بليل أمام بورفكتوريا العاصمة ، وفى الصباح الباكر اقتربنا إلى موقع الرسو بالمخطاف وأشرفت على سيشيل منفى سعد باشا وصحبه ، وطربت نفسى بشعور ابن ثورة ١٩ ، وبالجمال الاستوائى ، والمرتفعات الخضراء التى تلمس أطراف السحب الواطئة ، فيما يعرف بمناطق « الدولدرام » ، وبأسلوب فى العمارة مخالف لكل مما شهدناه طوال تجوالنا حول بحر الهند والبحر العربى ، حذرت أمر ذلك الأسلوب من الصور التى رأيتها من قبل لأسلوب البناء وتنظيم المدن بالمستعمرات الاستوائية الفرنسية ، وسكانها الفرنسيون المولودون فيها من أصل فرنسى غير مهجن ، ويعرفون « بالكريول » ، أسلوب يجمع بين الرقة والفانتازيا ، والزخرف والتوافق بين البيئة والجو الحار .

أول من قابلت من سكان سيشيل كان طبيب الميناء والحجر الصحى ، قدمت له السجل الطبى شهادة بسلامة ركاب السفينة صحيًا ، ودعانى لتناول طعام الإفطار معه بمستشفى المدينة ، ولزيارة أقسامه . وفيها انبهرت بجمال مريضاته « الكريول » ، وزميلاتهن السود والسمر بلون القهوة واللبن .

سحرتنى مدينة بور فكتوريا بجنتها الاستوائية ، وجاداتها الفسيحة

ونظافتها وأناقتها. وقفت أشاهد خروج الصبية الصغار من مدرستهم لفترة الظهر، سمر وسود. سألت أحدهم عن اسمه وما يدرس فأجابنى بالفرنسية، ونطق اسمه زان (جان) لوران، وحدثنى عن مدرسته. سألته بأية لغة تتكلم؟ أجاب «زوبال كيول» أتكلم الكريول).

أنا: «لا أعرف لغة اسمها ذاك، إنك يا ابنى تتحدث بالفرنسية. أجاب «زوبال كيول».

وعرفت أن مؤتمر فيينا الذى أنهى إمبراطورية نابليون، وأعاد حكم البوربون، قضى باستيلاء بريطانيا على جزر سيشيل، من أملاك فرنسا، وبإبقاء اللغة الفرنسية للأهلين، وتبقى رسمية هى والإنجليزية مدى مائة عام (١٨١٥ - ١٩١٥). وفهمت معنى غلمان سمر سود يتكلمون لغة لا يسمونها فرنسية، وهى فرنسية مع ذلك، وحديثنا مع أهل الجزيرة كان بها. وكانت لغة صاحب الفندق الذى تعشيت عنده فى مستوى لغة أساتذة السوربون، سألته عن سفره إلى فرنسا وكيف يفسرون لغته، غير المعتادة بين عامة الشعب فى باريس قال: حسبونى فرنسيًّا من كندا.

وتناولنا الغداء: رئيس البعثة الإنجليزى، وقومندان «مباحث» الأسكتلندى، وضابط البحرية الملكية البريطانية «الكوماندوز ايان فاركسون» وأنا، على مائدة الحاكم العام البريطانى. وهناك رأيت لأول مرة الأناناس الطازج يتوسط المائدة، فيما يشبه زهرة كبيرة ضمن باقة استوائية تعلوها زهرة المانوليا. نسيت شكل قصر الحاكم من خارجه وداخله، والغالب أنه كان بريطانى النمط، مثل الطعام فيما عدا فواكه المنطقة الحارة.

لماذا أبدى وأعيد من حياتى فى منتصف العمر. لأن جاذبية أورليان

الجديدة، استقرت فى نفسى منذ رحلتى الأولى إلى الولايات المتحدة حين عبرت بلادها من الشاطئ الشرقى حتى الشاطئ الغربى. فمهما تميزت سان فرنسيسكو بجوها، وسحرها وروعة طبيعتها وكباريها المعلقة عبر خلجانها، وعجيبة حيها الصينى، فإن كل ما رأيت فى البلاد التى زرتها هو أميريكا الحديثة فيما تصورناه، وعرفناه من أسلوب حياتها وأنماط عماراتها ومن آدابها وصورها وأفلامها.

كان بودى أن أرى عاصمة الجنوب، فى لويزيانا القديمة، التى تحمل اسم الدوق فيليب دورليان الوصى على العرش بعد وفاة لويس الرابع عشر (١٧١٥)، انشأها على بعد ١٦٠ كيلو مترًا إلى الشمال الغربى من دلتا المسيسبى، جان - بابست لوموان، سيد بانفيل، فيما بين آخر عام ١٧١٧ ومطالع ١٧١٨ ؛ بناء على تعليمات حكومته فى باريس، وعلى رأسها تسمية المدينة الجديدة باسم الوصى على العرش. واختار سيد بانفيل كفرًا هنديًا قائمًا فوق ربوة تطل على منعطف شبه دائرى لنهر المسيسبى، أعطى لشكل المدينة الأصلى صورة الهلال، وتعرف لورليان الجديدة باسم «المدينة الهلال»، خطط لها مهندسان ملكيان، وقام بمنشآتها عدد هام من المهندسين الفرنسيين.

وبيعت ولاية اللويزيانا الفرنسية إلى الولايات المتحدة عام ١٨٠٣ تحت حكم القنصل الأول - بونابرت، وتوماس جفرسون رئيس الولايات المتحدة الثالث (١٨٠١ - ١٨٠٩).

كتب المصور الانطباعى الكبير «ادجار دوجا»، إلى صديق فنان بباريس من مدينة أورليان الجديدة حيث قضى ردحًا من الزمن فى زيارة أقربائه (أكتوبر ١٨٧٢ - فبراير ١٨٧٣)، وصور هناك لوحاته المشهورة

(سوق الأقطان) بأورليان الجديدة وهى التى رأيتها بمتحف مدينة « بو » بالجنوب الغربى لفرنسا أمام جبال البيرنيه ، وصورة لقريبته الضريرة استيل موسون دوجا (فى متحف اللوفر ، ومتحف أورليان الجديدة) قال :

(فرنسا الحلوة ما فتئ لها ربع قدم فى اللويزيانا - فيلات ذوات أعمدة ، بأساليب عدة . دهانها أبيض وسط رياض المانوليا والبرتقال والموز - زنوج فى ثياب رثة - أطفال بيض بين أذرع سود ، عربات تجرها بغال - مداخن السفن البخارية ترفع رأسها فى سماء آخر الشارع الكبير . ذلك بعض اللون المحلى ، وكل شىء جميل فى دنيا الناس - لو جاء « مانيه » إلى هنا لرأى أشياء حبيبة ، وحتى أكثر منى) .

وصلت بالطائرة من شيكاجو إلى « نواو رلينز » وتوقفنا دقائق فى أطلنطا وعصف الجو بأشد ما عرفت فى رحلات طيرانى منذ بدأتها (فى عام عبور لندبرج الأطلانطى وحده من نيويورك إلى باريس على طائرته الصغيرة سبيريت أوف سانت لويس ١٩٢٧) ، عصف فيما بين أطلانطا وأورليان الجديدة . وكانت الشمس قد غربت قبل وصولى ، ولكنى مطمئن إلى حجرة حجزت لى بفندق (بوريون - أورليان) بواسطة سيدة سمحاء أنيقة ، أميريكية من أصل بولندى ، صاحبة ومديرة مكتب سفريات ، بعد حديث ممتع أدركت منه نوعية المسافر . ركبت التاكسى مع بعض رفاق السفر ، نزلوا عن آخرهم بفنادق المدينة الحديثة : عمارات تنطح عمارات على النمط المعهود ، وبقيت وحدى بالتاكسى ، حتى غادرنا الأحياء الجديدة إلى ما يعرف « بالمربع القديم » « لوفيوكاريه » ، أى الحى الفرنسى الذى احتفظ بطابعه على ضفة المسيسبى . أمامى وأنا أكتب خريطة هذا المربع المقسم إلى مربعات تمثل بلوكات بيوت بين شوارع مستقيمة ،

تتعارض عموديًا. وهى الخريطة التى صحبتنى فى تجوالى بعد ظهر اليوم التالى لمشاهدة المبانى الأصيلة، المبينة عليها بأرقام. شوارعها تحمل أسماء فرنسية (بوربون - تولوز - سان لويس... إلخ).

انتهيت من تجوالى إلى ميدان جاكسون (اندرو جاكسون)، جنرال استرجع المدينة من الاحتلال البريطانى فى حرب ١٨١٢ ، ثم انتخب رئيسًا سابعًا للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧) . أمام كاتدرائية سان لويس. عبرت خط السكة الحديدية إلى ضفة المسيسبى. وقد وقع فى مقالاتى خطأ مطبعى واحد، حيث كتب اسم هذا النهر « الموسيوسيبى ». تبسمت للخطأ مغتبطاً به. لأن اسمه أصلا عند الهنود الحمر (ميسى سيبى) ويعنى « الماء الكبير » وما بين (الموسيو والميس)... فركة كعب.

لبثت وقتًا طويلا حتى قبيل الغروب أتأمل « الموسيو سيبى » وهو أعرض من نهرنا العظيم ضعفًا. وتذكرت متحسرًا النيل فى مدّه، حين كانت عظمة فيضانه تجل عن الوصف، وخاصة إذا وقفت على حافة الشاطئ واستمعت إلى هدير مياهه فى لون الطوب الأحمر.

وقررت أن أركب المسيسبى فى يومى التالى. على ظهر السفينة البخارية الكبيرة ذات الرفاص الخلفى الكبير واسمها « ناشيز »، من رصيف شارع نولوز بميدان جاكسون، وقضيت فوق سطح المياه المصفرة ثلاث ساعات أواجه الضفتين، وأشاهد الكوبرى الهائل عبر النهر، وأتذكر حياة الكاتب الكبير « مارك توين » الشاب، يتدرب على مهنة الإرشاد العويص وسط مياهه، وفوق قبعاته المتحركة، فيما بين « سان لويس » و « نواورلينز ».

ولا أعود إلى نشأة موسيقى « الجاز » فالمدينة الساحرة تحفل بالبهجة

والهيصة، والمتع الحسية. لأن من يقضى نهاره متأملا عمائر القرون السابقة، لا يجد متسعًا من الوقت، ولا يتيقظ إحساسه لسماع تلك الموسيقى المزعجة.

ربما كان مرأى المدينة العتيقة شيئًا خارقًا، فلعلها المثال الوحيد فى تلك البلاد الشاسعة تشعر فيه بنبض التاريخ، إلا أن تذهب كما ذهبت وكتبت فيما سبق من فصول عن زيارتى لمدينة بليموث على بعد أميال من مدينة بوسطن، للموضع الذى نزل به «الآباء الحجاج» على أرض العالم الجديد ذات يوم من عام ١٦٢٠ . وقد بلغوا مهجرهم المجهول هرباً من ضيق الأفق العقائدى فى بلدهم.

«المربع القديم» فى المدينة القائمة على منعطف نهر المسيسبى، تدرك فيه معنى العتاقة، وأنت تتأمل جمال العمارة التى تجمع بين الجمال الفرنسى والبهو (الباسيو) الأندلسى، وكل تلك الطنف الحديدية المشغولة كالدانتلا تحوط الطوابق بطولها وعرضها واستدارتها.

وإذا كان البلد رطبًا، حارًا و«يا مطرة رخى رخى»، فلا مناص من أسقف اردوازية شبه مسطحة، ولكنها مخفية بحيث تتراءى لك تلك البيوت القديمة، وكأنها بيوتنا المصرية بأسطحها المنبسطة.

فى عالم مرشدى السفن

كان النيل عندنا، أهل القاهرة يعرف «بالبحر»، وفيها أذكر وردت فى أسماء جاداتنا «شارع البحر الأعظم»، واسم نهر المسيسيبى عند أهل أميريكا الأصائل (الهنود الحمر) «الماء الكبير»، وكان إحساسى ببحرى الحلو، وقد عشت على شاطئه منذ صباى، إلى اليوم، ومعرفتى بجبروت فيضانه مصدر حزن دفين، وأنا جالس على مقعد يطل على ضفة المسيسيبى، أتأمل حركته واتساعه وأفكر بجبروته هو أيضًا، إلى جانب بحرى الذى قيد بأغلاله، وصار حبيسًا.

وذكرتنى مشاهدة المسيسيبى لأول مرة من مدينة أورليان الجديدة بالكاتب الأمريكى أول محرر لأدب بلاده، من سلطان أدب انجلترا الأم، فما أن عدت إلى مستقرى حتى أخذت فى تقليب صفحات بعض مؤلفاته، أطالع ما يعن لى مما سبقت إلى قراءته فى صباى ووقفت عند كتاب له اتأمله وأغوص فى فصوله وعنوانه «المسيسيبى فى الأزمنة السابقة».

لأن «صمويل كليمانس» المولود فى قرية فلوريدا بولاية «الميزورى» عام ١٨٣٥ انتقل مع والديه قبل بلوغه الرابعة إلى بلدة «هانيبال» على ضفة المسيسيبى اليمنى. نشرت الخريطة أمامى أبحث فيها عن موقع تلك البلدة حتى وجدتها على مبعدة نحو ثمانين ميلا إلى الشمال من مدينة سان لويس فإذا تابعنا النهر فى اتجاه (المصب) طالعتنا أسماء مصرية لبعض

البلاد. فها هى «كايرو» «وممفيس» من البلاد المطلة على النهر العظيم.

يجب أن نفهم الحيرة التى لاقاها المهاجرون، المستعمرون، فاتحو الطريق إلى أقصى غرب شبه القارة، فى تسمية بلدانهم الجديدة، تبدأ أكواخًا من الخشب. فقد يلجئون إلى اسم الكفر أو المحلة عند السكان الأصليين وهم الهنود الحمر. وذلك لم يكن ميسورًا دائمًا، وقد يضطرون إلى استعارة أسماء من بلاد العالم القديم. فعندهم باريس (بلدة صغيرة على مقربة من نهر الأوهايو) وبرمنجهام وكامبريدج، ودوفر، ودرهام، وهانوفر. وكان اسم نيويورك قبل الإنجليز (نيو امستردام)، فاستعار المستعمرون الجدد اسم مدينة يورك من إنجلترا.

إن أهم حقيقة فى حياة «صمويل كليمانس» الشخصى و «مارك توين» الكاتب، هى بلدة هانيبال بموقعها على المسيسيبى. «واسم القلم» هذا سيتضح فيما يلى. فهو مجرد نداء بحارة السفن النهرية القائمين على سير أغوار المسيسيبى، تفاديًا من الجنوح بسبب تغير قبعاته. ومن بين نداءات فى مواضع انخفاض مياهه، وأوقاتها بسبب تغير قبعاته. ومن بين نداءات قياسى الأعماق «مارك» أن تنبه، خد بالك أو لاحظ، أو سجل «توين» وهى فى لغة الأميريكان تعنى زوجًا من الشىء وعلى سطح مراكب المسيسيبى تعنى «قامتين» (زوجًا من القامات).

بلدة هانيبال تجمع إلى خصائص المحلة الريفية، ميزة الاتصال الدائم بالعالم الخارج عن طريق النهر الملاحى الأكبر بالرفاصات البخارية الكبيرة، وغيرها تحمل تجارة شبه القارة من ولاية ويسكونسن فى الشمال وما خلفها حتى أورليان الجديدة إلى أقصى الجنوب ومنها إلى خليج المكسيك وتقف تلك السفن ببلدة هانيبال أيامًا أو ساعات.

وهانيبال على مقربة كما قلنا من سان لويس مفتاح الطرق إلى سانتافيه أو أوريجون أو كاليفورنيا.

بدأ صامويل كليمانس حياته العملية صبيًّا فى مطبعة، وكانت هذه المهنة فاتحة هامة لأدباء أميريكا فيما بعد. فقد أسس مارك توين دار نشر أثمرت أم انتهت إلى بيوت نشر الأدباء (والترسكوت وأونوريه بلزاك) إلى التفليس.

وفى سن العشرين كان مارك توين قد تمرس بالأدب الإنجليزى الكلاسيكى، وطالع التاريخ، وعمل فى الصحف مخبرًا وكاتبًا يمزج الجد بالهزل، والتنكيت بالتبكيت، فيلقى بالنكتة التى تضحك على الرغم من وخذ قرصتها.

فى عام ١٨٥٧ بدأت «صبينته» على مرشدى سفن المسيسيبى وفى هذا يقول:

«فى مطالع حياتى كان طموحى وطموح أقرانى فى بلدة هانيبال على الشاطئ الغربى للمسيسيبى هو أن تكون «رجال النهر» فوق رفاصاته البخارية. نعم كانت لنا تشوقات عابرة من أنواع شتى. فما إن رابط سيرك فى ديارنا فترة ثم غادرنا، حتى نشتاق جميعًا أن تصبح «بلياتشوات». وعندما تمر بنا جوقات الأدباتية السود، ونشهد تقاليعهم وصعلكتهم، يتوق كلنا إلى حياة «العز فى النقل» فالصعلكة وإن رضى الله عنا فسوف يسمح لنا سبحانه وتعالى أن نتحول إلى قرصان بحار. كلها هذه تطلعات سرعان ما يخبو ضياؤها، إلا التطلع إلى شغلة مرشدى سفن المسيسيبى. وبلدة هانيبال تظل فى غفوة إلى أن يهل فى البعد عامود دخان غامق فيتصايح الزنجى الفحل، منادى البلدة بصوته الراعد «باخرة قادمة»، وإذا بالكتبة والمسببين، والتجار وذوى المصالح يفيقون

من نعاس القيلولة ويخرجون من الشقوق، هم وعربات النقل، وجواسق البيع والشراء، الكل يهرع إلى رصيف البلدة، ويتطلع إلى عجيبة الأعاجيب، وكأنهم يرون الرفاص البخارى الكبير لأول مرة.

وما أشبه وصفه هذا انطباقًا على ما كان يحدث ببور سعيد فى أيامها الخوالى - كما عرفتها. كانت تصحو فى بهمة الليل، أو فى مطلع الفجر أو فى القيلولة ويتجه أهلها كافة كل حسب عمله ومهنته وآماله وتطلعاته إلى المرسى أمام مبنى شركة القنال الدولية «كذا» يقدمون أنفسهم على استعداد للخدمة فى البر، ويندفع البمبوطية بفلايكهم يزعقون من فوق سطح الماء لتصل كلماتهم باليونانية أو الإيطالية أو الإنجليزية إلى أسماع ركاب السفينة العابرة.

ليس من السهل اختيار منظر من المناظر التى عاشها صبى المرشدين، صمويل كليمانس وقد وقع اختيارى على هذا المنظر:

كنت لا شيء (صفرًا) فى جماعة المرشدين. فلم أبلغ حتى أوضع مركز فى إدارة عجلة الدومان [السكان]... وعند الغروب قرع مستر بكسبى جرس السفينة ثلاث مرات إشارة إلى الرسو، وخرج القبطان من صالونه ونظر إلى مستر بكسبى متسائلا فقال له هذا:

«سنبقى هنا طوال الليلة ياقبطان» وأجاب الربان «طيب يا سيدى» وقد كان.. ورابطنا لقضاء الليل وإنما كان شيئًا لطيفًا حقًا أن يصنع المرشد ما شاء وراق له، دون أن يستأذن ربان السفينة.

«والمرشدون لا يتهيبون كثيرًا «أقاصير قاع النهر فى رحلة الصعود (الاتجاه شمالا ضد التيار)، لا يجبرهم أمر على التوقف، سوى الضباب. على حين أن السفر هبوطًا مع التيار شيء آخر.

فالسفينة لا حول لها ولا قوة فى تيار قوى يدفعها من الأدبار. ولهذا السبب لم يكن معتادًا أن تهبط السفن مع التيار فى الليل، عندما ينخفض مستوى الماء فتصبح الأقاصير عوائق خطيرة.

كان أمامنا أمل واحد، وضعيف، لبلوغ بلده «كايرو»، هذا إن استطعنا الوصول إلى «جزيرة البرنيطة» (هات أيلاند) قبل مقدم الليل. لأن عبور المنطقة والاستدارة حول رأس الجزيرة يمثل خطورة ومشاق عظيمة. أما بعد ذلك فالإقلاع ميسر فى ماء غير قصير وهذا يفسر خروج الساعات من الجيوب لمعرفة الوقت، والاهتمام بفك «جفر» السرعة. وكانت «جزيرة البرنيطة» موضوع الحديث السائر طوال اليوم العصيب ينفسح فيه الأمل آنًا ويضيق آنًا آخر حتى يوصد بابه.

لم يكن المرشدون الإضافيون ينتظمون فى «ورديات»، وكان كل واحد من مرشدينا الكثيرين يقوم بقيادة السفينة فى مكان من النهر عبره مؤخرًا فى رحلة الصعود شمالا، فهو بمعلوماته الحديثة أعرف بحال المنطقة، ولكن الآخرين يبقون فى «قمرة» المرشدين تحت الطلب.

وعند اقتراب المغرب تسلم مستر بكسبى عجلة «الدومان»، وفى الدقائق الثلاثين من تسلمه أمسك كل أفراد السفينة بساعاتهم فى قلق يخيم عليه السكون. وأخيرًا نادى أحدهم: شوفوا يا أولاد أهى جزيرة البرنيطة قدامكم ولا يمكن عبور مياهها «وهنا أقفلت ظروف ساعاتهم بطرقعة واحدة وأخذ الجميع يطلقون الزفرات (هذه ساعات أجدادنا نحن الشيوخ، عرفتها غلامًا).

اختفت الشمس تحت الأفق والسفينة تواصل السير، ويتبادل الجميع نظرات الاستغراب، شد مستر بكسبى حبل الجرس، ودق مرتين فانتشر

الرنين فى تحية الليل ، وبعد هنيهة دق مرة ثالثة ، وتبعه صوت « الناضور » للنوبتجى من الكوبرته العليا صائحًا : إلى قياسى العمق سنجق وقياسى العمق سقالة.

صاح رجال سير الفور، ونقل كلامهم المبلغون من الكوبرته العليا : « سجل ثلاثًا « نقص الموقع إلى قامتين ونصف ، فإلى قامتين وربع « مارك توين إلا ربعًا » (سجل قائمتين إلا ربعًا) ، ومن هذا النداء اتخذ صمويل كليمانس اسم القلم.

وشد مستر بكسبى حبلى الجرس ، فاستجابت له خشخشه وصليل من غرفة الشرك (الآلات) فى أعماق السفينة. وهبطت السرعة، وبدأ البخار يصفر من صنابير الضبط. وصوت قياسى العمق مستمر فى نداءاته لتسجيل النتائج أولا بأول ، وكأنه صوت القدر الداهم فى الليل الساجى.

كل المرشدين فى تلك اللحظات كانوا مركزى الأنباء ، وعيونهم محددة البصر وإذا تكلم الواحد منهم فبصوت خافت لم يك بينهم رجل هادئ مرتاح ، إلا مستر بكسبى. فقد ترك دولاب (الدومان) ليضع قدمه على شعاعة من شعاعاته.

وبينما كانت السفينة تتحرك تبعًا لعلامات غير مرئية (لى أنا) وكأننا فى بحر واسع كئيب. كان مستر بكسبى هو القائم وحده بتثبيت السفينة فى أوضاعها المختلفة ومن خلال اللفظ الكلامى غير المسموع تمامًا ، أمكن تعين جملة مترابطة من آن لآخر مثل : « آهى تمضى فوق الأقاصير فى آمان ».

وبعد السكوت المجلل يقول صوت مكتوم « إنها ورب السماء تهبط بفشها (بمؤخراتها) فى أمان ».

« وها هى ذى فى طريقها السوى تحقق العبور » وآخر همهمة كان عملا رائعًا .... والآن : توقفت الآلات تمامًا : فواصلت السفينة السير يدفع التيار ، وكان هذا الخضوع للتيار أسوأ السوء تنقبض له القلوب .

ثم اكتشفنا أسوأ ظلام مما يجللنا به الليل .. كان رأس جزيرة البرنيطة ، والسفينة يدفعها التيار إليها مباشرة دخلنا فى ظل الجزيرة الأكثر كثافة ، وبدأ الخطر داهمًا لدرجة أنى أشرفت على الاختناق وجلا ورهبة ، وبنفسى إحساس قوى يدفعنى إلى عمل شىء لإنقاذ السفينة .

ولكن المستر بكسبى ما برح واقفًا إلى عجلة « الدومان » صامتًا ، متحفزًا كالهر ، وجمع المرشدين واقفين خلفه كتفًا إلى كتف .

وصوت هامس يقول : « ستعوق السفينة فى العبور » . وأصوات القياسيين ترتفع معلنة « اقتراب القاع » ثمانية ونصف « ثمانية أقدام ... سبعة و ... » .

مستر بكسبى يتكلم فى صوان البوق الموصل لغرفة الشرك عن طريق ماسورة ويقول بصوت حام : ستاند باى . (خذ أهبتك توًا) ، فيرد المهندس من قاع السفينة (تمام ، تمام يا فندم) (سبعة ونص .. سبعة .. ستة .. و .... مسسنا القاع) وحرك مستر بكسبى أجراسًا كثيرة ، وصرخ فى صوان البوق « والآن أعط السفينة كل قدراتها ، أعطها حتى الثمالة » ثم التفت إلى شريكه المرشد « اخفس بها الأرض ، اخطفها ، اخطفها » والسفينة تصر صريرًا ، تضرس له الأسنان .

طحنت طريقها على شفا الكارثة . لحظة واحدة هنيهة هائلة ..

وتمكنت من العبور . وكانت صيحة جماعة المرشدين خلف المستر بكسبى مما لم ترتفع يومًا إلى درجة تفكيك مغاصل السقف فوق « قمرتهم »

أو برطوزهم، كما يقول بحارتنا) لم نلق صعوبة بعد ذلك. وكان المستر بكسبى يطل تلك الليلة الليلاء، وانقضى زمان غير طويل بعد ذلك حتى توقف التحدث بما كان من رجال النهر.

وكان آخر ما سمعت من ملحوظات: تحية وإطراء من شخص يخاطب نفسه.

«وحق ظلام الموت، إنه لمرشد باهر».

Obeikandi.com

توماس چفرسن

الرئيس الثالث للولايات المتحدة

جاء فى وصف مؤرخ أميريكى للرئيس القتيل چون فتزجرالد كنيدى أن كان فيه من قوة شكيمة تيودور روزڤلت. ومن فرنكلين ديلانو روزڤلت، قدرته على الوصول إلى قلوب الجماهير. ثم أضاف إلى ذلك اهتمام كنيدى بالفنون والآداب وأهلها، مع لطف المعاشرة الاجتماعية. وكان هذا سجية فيه، مثلما كانت لتوماس چفرسن. وقد تجيء هنا إشارة مستورة إلى الندرة فى هذه السجية لدى رؤساء الجمهورية الكبرى فى العالم الجديد.

وربما نسى القراء تيودور روزڤلت، وهو الذى تولى الرياسة عام ١٩٠١ بعد مقتل الرئيس ماكنلى على يد فوضوى. وكان روزڤلت من الحزب الجمهورى، ديموقراطى النزعة، مقبلا على الإصلاح، مؤمنا بأن الرئيس أقرب إلى قلب الجماهير من الكونجرس. وبرغم أنه من المحافظين، لا يلجأ إلى وسائل ثورية لتغيير النظام الاقتصادى، فإنه كان يعمد إلى تنظيفه من المساوئ التى اعتورته. ولهذا عزم على إثبات أن الحكومة أعلى يدًا من كل رجال الأعمال، مطالبًا بتحقيق العدالة لرجل الشارع بالحد من سلطان أولئك الرجال. وعقب انتهاء رياسته، قام برحلة حول العالم، زار فيها مصر، ووقف بأسوان يثنى على الاحتلال البريطانى، فى إبان أزمة الخديو عباس الثانى مع المعتمد البريطانى، بعد أن

سمح الأمير لنفسه بتوجيه النقد إلى نظام الجيش المصرى القائم عليه ضباط بريطانيون. وتولى أحمد شوقى، أمير الشعراء الرد على روزفلت بخريدته الضادية، أشاد فيها بأمجاد التاريخ المصرى، موجهًا الكلام إلى الزائر المعتدى:

أيها المنتحى بأسوان دارا كالثريا يكاد أن ينقضا

وسواء عرف روزفلت بأمر تلك القصيدة، أم لم يعرف، فقد نزلت بردًا وسلامًا على قلوب أهل الكنانة. وكانت من أول ما عرفت، وأحببت، وحفظت من قصائد الشاعر المغلق.

أما قريبه فرنكلين روزفلت، فهو الذى قاد الشعب الأميريكى بتؤدة سياسية لينضم إلى الحلفاء فى محاربة عصابة المجرمين الذين هددوا البشرية جمعاء بمحاولة القضاء على الحريات، وقد وأدوها فى بلادهم، ومحوها فيما احتلوه من أصقاع فى أوربا وأفريقيا وآسيا.

يبقى الرئيس الثالث توماس جفرسون الذى ورد ذكره فى هذه الفصول. وأعترف خجلا بأننى - قبل زيارة الولايات المتحدة، لم أك أجهل هذا الاسم فحسب، بل كانت معرفتى بتاريخ تلك البلاد، أقل من القليل، فيما لا يزيد عن الإلمام ببعض سيرة چورچ واشنطن، وحرب الاستقلال، وبنقاط الرئيس وودرو ويلسون الأربعة عشرة، وأثرها فى تحرك مصر، عقب إعلان الهدنة فى الحرب العالمية الأولى، نحو المطالبة بالاستقلال التام. واقتصرت معرفتى على أعلام الأدب الأميريكى، وإطلاعى على ما أفادنى من المؤلفات الهامة فى تخصصى الطبى، ثم العلمى، وفى كلفى بفن الموسيقى وعلومها. وكل هذا لا يعنى أكثر من المعرفة على البعد للمنجزات الأميريكية فى العلوم والصناعات والزراعة

والاختراع، معرفة تقدير، يمكن تقييمها على علم بالنتائج، لا بمصادرها وأصولها، وقواعدها السياسية والاجتماعية. وهنا يفسر اتجاهى قبل السفر، وإبان الرحلة، إلى التعرف على الأصول الديمقراطية العظيمة، ومصادرها.

ويشاء حسن الطالع، وقد قفلت عائدًا إلى باريس، أن تقيم السفارة الأميريكية فى أوائل سنة ١٩٧٥ معرضًا «بالجران باليه» (السراى الكبرى للمعارض)، خصصه للتاريخ الأميريكى فيما بين سنتى ١٧٠٦ و ١٨٢٦، كمقدمة للاحتفالات الكبرى، المزمع إقامتها سنة ١٩٧٦ بمناسبة مضى مائتى عام على تحرير أميريكا. وقد ركزت السفارة على حياة رجلين من عظمائها: بنيامين فرنكلين المولود سنة ١٧٠٦ والرئيس الثالث توماس جفرسون المتوفى عام ١٨٢٦ .. وهو الشخصية المنيرة التى جذبتنى إليه وأنا أطالع التاريخ الأميريكى. وعنوان المعرض «بناة الاستقلال».

كانت البلاد فى مطالع تلك الحقبة مستعمرات صغيرة للبريطانيين، على صلة مستمرة بوطنهم الأصلى. وفى آخرها توحدت الولايات، وحققت التحرير التام من النير البريطانى. وكان الرجلان من أشد الناس إدراكًا وفهمًا للاحتياجات الأساسية لبلادهم: فرنكلين بعلمه، وحصافته، ولباقته، وفهمه العملى. وجفرسون بالثبات على مبادئه، يدافع عنها فى حماس متقد.

وجفرسن ابن ولاية ڤرچينيا، درس فى جامعة وليامسبرج، وكان طالبًا نابهًا، تواقًا إلى المعرفة، فاق شباب جيله ثقافة، مع حب الخلاء، والفروسية، والسباحة برقص فى الحانة، ويعزف على الكمان فى صالون حاكم ڤرچينيا. بدأ عشريناته محاميًا، وآثر اعتزال المحاماة، عقب

زواجه، واستقراره فى بيته الريفى المسمى «پونتشيللو»، يفضل مشاركة معاصريه فى حركات التذمر، والاحتجاج على الضرائب التى فرضتها الحكومة البريطانية على سكان مستعمراتها بالعالم الجديد – وهم بريطانيون – دون أن يكون لهؤلاء رأى، أو صوت ، فى البرلمان البريطانى.

ذهب إلى المؤتمر القومى العام كمجاهد مثالى، بغير طموح شخصى. أهم ما يعنيه تصحح النظام الحكومى، وقد سبق ذلك عمله فى تعديل قوانين ولاية ڤرچينيا، وعين حاكمًا لها سنة ١٧٧٩.

وإذ توفيت زوجته الشابة، وقد أخلفته بنتين، أحس برغبة فى الاختلاء بأبعادية «پونتشيللو» الواسعة. وهيهات! فقد دمرها جنود الجنرال البريطانى المكلف بالقضاء على ثورة التحرير.

وبعد أشهر من السوداوية والحزن، رضى بالسفر إلى فرنسا سفيرًا لبلاده. فبهرته باريس فى السنوات الأخيرة للملكية. وجاء فى رسالة له قوله: «ولا أجد فى الكلمات قدرة على التعبير عن إعجابى بفنون العمارة، والنحت، والتصوير، والموسيقى فى هذه البلاد».

وعقب الاستقلال، وانتخاب قائد الثورة، چورج واشنطن رئيسًا للولايات المتحدة، عين چفرسون سكرتير دولة (= وزير الخارجية)، ثم اضطر للتخلى عن الوزارة، من جراء معارضة هاملتون سكرتير الخزانة (= وزير المالية). ولكنه عاد إلى العاصمة فيما بعد، نائبًا للرئيس، ثم رئيسًا للولايات المتحدة بعد انتهاء مدة الرئيس الثانى، چون آدمز.

أوصى چفرسون فى أخريات حياته بأن تنقش على قبره هذه الشهادة: «هنا يثوى توماس چفرسون، مؤلف وثيقة الاستقلال، وصاحب المبدأ القاضى بالحرية الدينية فى ولاية ڤرچينيا، ومنشىء جامعة ڤرچينيا».

والحق، أن ما أوصى به الرجل العظيم، هو أروع ما أدى لبلاده من أعمال باقية. «فوثيقة الاستقلال» كلف بها المؤتمر القومى العام لجنة من بنيامين فرنكلن، وچون آدامز، وتوماس چفرسون. وعهدت اللجنة إلى چفرسون بوضع مشروع الوثيقة، الذى وافقت عليه اللجنة والمؤتمر العام، بعد تعديلات خفيفة.

وصدر الدستور الأميريكى بعد إعلان الاستقلال بإحدى عشرة سنة. أبلغه إياه صديقه الحميم ماديسون، وكان چفرسون فى تلك الأثناء يمثل بلاده فى بلاط لويس السادس عشر. فرد على صديقه بالموافقة بصفة عامة، ولكنه أسف ألا يتضمن الدستور إعلانًا للحقوق التى تكفل الدفاع عن حريات الفرد. فقام ماديسون بوضع التعديلات العشرة الأولى التى أضيفت إلى متن الدستور. وهى المعروفة فى التاريخ الأميريكى باسم «إعلان الحقوق»، الوثيقة العزيزة لدى الأميريكيين، وموضوع اعتزازهم، ومباهاة الأمم بها. لم تكن شيئًا جديدًا، فهى فى الحق تعبير صادق عن النظرية السياسية لعصر التنوير، بما يوائم الحقيقة الأميريكية.

كتب جفرسون فى إحدى رسائله إلى صديقه ماديسون: «إعلان الحقوق يعبر عن حق الشعب فى الضمانات التى يحتمى بها من تعسف أية حكومة تجىء... ولا حق لأية حكومة عادلة أن تعارض فى حق الشعب، أو أن تترك هذه الضمانات دون تعبير وتدوين».

ومن الأهمية بمكان - لأن ما يجىء يعتبر من المقومات الأساسية للدول فى العصر الحديث - الإشارة إلى نص جاء فى هذه التعديلات التى وصفها ماديسون بالاتفاق مع چفرسون: «ليس فى إمكان الكونجرس أن يصدر قانونًا يشير إلى تحديد دين بعينه». وبهذا النص بدأت الديموقراطية بمبدأ

فصل الدين عن الدولة. وليس فى هذا موضع تعجب من أبناء مهاجرين – «الآباء الحجاج» – نزحوا عن وطنهم لشعورهم بالحيف والجور من حكومة وطنهم الإنجليزى حددت مذهبًا بعينه ليكون دينًا رسميًا للدولة.

ولچفرسون فضل آخر، وهو انفتاح الولايات المتحدة على المساحات الشاسعة غربىّ المسيسبى. فمن أقواله: «إنِ الولايات الأميريكية فى الشرق ليست شيئًا مذكورًا بالنسبة لتلك الأراضى الواسعة». ولم يكن رأى چفرسون مجرد رجم بالغيب أو رغبة متفائلة. بل كان من مصادر قيام بيت «مونتشللو» فوق ربوة تطل على مزارعه الواسعة فى اتجاه الغرب. وقد ابتعث فيه ذلك الانفتاح على الغرب، الرغبة فى جمع ما يتاح له من خرائط، ومدونات رحالة، عن هذا الغرب. وچفرسون هو الذى أوصى ببعثة علمية لاستكشافه، أسند رياستها إلى سكرتيره لويس بعد أن زوده بكل الوسائل التى تعده لهذه المهمة، وأشرك معه رحالة بحاثة اسمه كلارك. وتعرف البعثة باسم «لويس – كلارك»، عادت بعد سنتين محملة بالمجموعات الأنثروبولوجية، والنباتية، والحيوانية، ومدوناتهم عنها، وعن كل ما شاهدوه فى تجوالهم البعيد. وبذلك مهد الطريق للمستعمرين. وكانت القاعدة القائمة حينذاك أن من حق المستعمرين للغرب، عندما يبلغ تعدادهم فى صقع ما سبعين ألفًا، أن يضعوا دستورا لهم ينضمون بمقتضاه إلى الاتحاد، بكامل الحقوق، أسوة بالولايات المستقرة، على شريطة اشتمال دستورهم على مادة تطلق حرية العقيدة الدينية، وترفض أى نوع من استعباد السود، تجنبًا لامتداد نظام العبيد السائد فى ولايات الجنوب.

وتضاف إلى أعمال چفرسون البارزة، صفقة شراء الإقليم المعروف

باللويزيانا (نسبة إلى اسم ملوك فرنسا) . وهذا الإقليم الشاسع الأرجاء ، الذى يمتد حتى « الجبال الصخرية أى الروكى ماونتنز » ، مستعمرة إسبانية انتقلت إلى حكم فرنسا عام ١٨٠٠ . وقد بدأ الرئيس چفرسون محاولته عندما طلب من الوزير المفوض للولايات المتحدة لدى حكومة « الديركتوار » ، التفاوض مع حكومة القنصل الأول بونابرت لشراء اللويزيانا . ولم تطل المفاوضة لأن تاليران وزير الخارجية وافق على بيعها مقابل ١٢ مليون دولار . لم يكن چفرسون قد تلقى تفويضا من الكونجرس ، بمقتضى حكم الدستور ، لإجراء الصفقة ، ولكن النجاح الذى تحقق لبلاده يسر موافقة الكونجرس دون معارضة ذات شأن .

وبهذا تضاعفت مساحة الولايات المتحدة بنحو ثلاثمائة ألف هكتار . وفى ٢٠ ديسمبر ١٨٠٢ تسلمت الولايات المتحدة من فرنسا مدينة « أورليان » ، ورفعت عليها أعلامها باسم « نو أورلينز » .

كتب چفرسون فى عام ١٨٢١ إلى چون آدمز صديق الثلاث عشرة من سنوات حياتهما ، بعد سنين من الجفاء بسبب الخلافات السياسية : « لا أحسب جهودنا ذهبت هباءً ، وسوف أموت دون أن أفقد الأمل بأن نور العلم والحرية سيضىء دائمًا » .

وهذا هو اليوم والعام (١٩٧٦) الذى تحيى فيه أميريكا ذكرى المائة الثانية لصدور وثيقة الاستقلال فقد دعى الرئيسان ، الثانى (آدمز) ، والثالث (چفرسون) لحضور الاحتفال فى واشنطن ، بمرور خمسين عامًا على إعلان وثيقة الاستقلال ، وكان ذلك فى ٤ يولية ١٨٢٦ . ولكن حالتهما الصحية ، وتقدمهما فى العمر لم تسمح لأيهما بالانتقال إلى واشنطن .

وفى مساء ٣ يولية أحس چفرسون بدنو أجله، وأخذ يسأل عما إذا كان التاريخ هو ٤ يولية. وشاء القدر الحانى أن يبقى الرجل العظيم حيًّا إلى ما بعد انتصاف الليل، ليلاقى ربه فى الساعات الأولى من يوم الاحتفال السعيد.

أختم الكتاب بهذا الفصل فى الرابع من يولية ١٩٧٥
القاهرة

حسين فوزى

obeikandl.com